الغشاوة

قصة بقلم الدكتور سهيل ادريس

لماذا احاول ان أخدع نفسي ؟ ألم أكن عازمة على ان أحسم القضية ، لو لم يواجهني ذلك المساء بعبارته تلك : « انتظري اسبوعاً فقط ! » ؟ أليست هذه الدعوة الغامضة الى الانتظار هي التي دفعتني الى تأجيل مصارحته بما اعتزمت عليه ، فكان ان صمتّ ، ثم اثرت موضوعاً آخر للحديث ، حتى لا أضطر الى وعده بشيء ؟

وحين افترقنا ذلك المساء ، كان همي الاول ان اتحرى السبب الذي حمله على ان يطلب مني الانتظار . أتراه قد ادرك بحسه المرهف ما كان يجول بفكري ، فشاء ان يمدّ لنفسه حبل الرجاء ؟ ولكن ما عساه يحدث في هذا الاسبوع ؟ اي شيء تراه يتوقع ؟ امعجزة تقلب الوضع ، فتجعل منه ذلك الشاب الذي أنشده ، وأتمنى ربط مصيري بمصيره ؟

إنه بالطبع لم يدرك اني انما ارجأت الاجابة على طلبه ، حرصاً مني على شعوره الا يُصدم ، واني لم اقل له : « دعني افكر في الأمر بعض الوقت» إلا على سبيل المجاملة . لقد ادركت ، منذ التقيت به المرة الاولى ، اني وقعت من نفسه موقع الرضى . عرفت ذلك من اقباله ولهفته واضطرابه . ولا أكتم اني ، بدوري ، وجدت في حديثه بعض المتعة . وكان من الطبيعي ان اعرف من شؤونه ، في الايام التالية ، فوق ما كنت اريد . وكان خيراً لي ان اعرف ذلك ؛ فلقد تبدد من ذهني كل وهم كان يمكن ان يعلق به ، حول وضع هذا الشاب .

لقد اتيح لي ، طوال هذه الاسابيع الخمسة، ان اخبره خبرة كافية، فلم يداخلني منه نفور، ولكني كذلك لم أشعر له بميل. لقد خلف في نفسي إحساس الحياد. وهذا ما جعلني أعمّق يقيني بأن هذا الذي يسميه الناس « نصيباً » ، انما هو هذر سخيف. ومهما يكن من أمر ، فقد كنت عازمة على ان اختار شريك حياتي بوعي ورصانة وجد . ولقد غذيت في ضميري هذا الوعي ، وهدهدته بأعذب الامنيات . من أجل هذا ، لم تكن مفاجأة مربكة لي ان يسألني « سالم » إن كنت ارضى به زوجاً ، فاني قد واجهت هذا الاحتمال ، واتخذت له الحيطة ، واعددت جوابي : « دعني افكر في الأمر بعض الوقت » ، على يقيني بأن الأمر لا يحتاج الى تفكير: فأنا واثقة من ان هذا الشاب بعيد جداً عن تحقيق احلامي . ولم اكن لأزيف على نفسي حقيقة ما أطلب ، فأنا انشد شريكاً للحياة جميلاً ، ذا غنى وافر ، وثقافة رفيعة ، ومركز اجتماعي مرموق . اما سالم فواضح انه شاب فقير ، كبير الاسرة ، كثير الاعباء ، وليس في مظهره ما يفتن او يجذب . وصحيح انه مثقف ، ولكن أتكون هذه ميزة يتفرد بها القليلون ؟ لقد اصبحت الثقافة اليوم حاجة حيوية ، يأخذ كل شاب منها بنصيب . واما المركز الاجتماعي الذي يتمتع به ، فهو ضيق النطاق ، لا يكاد يتعدى دائرة صغيرة من وسط المعلمين وهواة الادب .

تلك حقائق ، ما كان سالم نفسه ليخفيها عني ، بل إنه كان صريحاً غاية الصراحة في الظهور بها ، فلم يحاول ان يخدعني او يموه على الواقع . وأشهد اني قدرت ذلك فيه ، بل اعترف اني اعجبت بصدقه واستقامته . ولكن تلك الصراحة وهذا الصدق أعجز من ان يعوضاني ما أنشده في شريك حياتي .

وإذن ، فلم يكن يساورني اي تردد في مصارحة سالم بحقيقة شعوري نحوه . كنت عازمة على صرفه عن التفكير بي . ولكنه حين لقيني بعد ثلاثة ايام ، لم يدع لي مجال التعبير عما صممت عليه ، بل واجهني ذلك المساء بعبارته تلك : « انتظري اسبوعاً فقط ! » .

وابتسمت في نفسي . اي ضير في ان انتظر ؟ انني لست من الخفة بحيث أعدل عن رأي كونته بعد وعي وادراك عميقين . ولا احسب ان ثروة طائلة ستهبط على سالم ، فتجعل منه ، بين ليلة وضحاها ، ثرياً من الاثرياء . وكان ان صمتّ ، ثم اثرت موضوعاً آخر للحديث ، حتى لا اضطر الى وعده بشيء .

***

اي معنى كان في نظرتك الغامضة يا سالم ؟ أكان فيها رضى وراحة ، ام لوم وعتاب ؟ لماذا لم تكن هذه النظرة صريحة عارية كأقوالك ؟ لقد قلت لي ، بعد يومين من ذلك اللقاء ، انك لن تدعني انتظر اسبوعاً بطوله ، وان بوسعك ان تكشف لي ذلك النبأ الذي وصفته بأنه مفرح ، وانه سيرضيني من غير شك ، وهو ان وضعك المادي سيتحسن كثيراً منذ الغد، اذ انك ستتقاضى راتباً كبيراً من عمل جديد أسند اليك ، وما كنت تحلم ان تتقاضى مثله . ولكن سرعان ما احسستني في ارتباك وضيق ، لم احس بمثلهما من قبل ، ساعة صمتّ يا سالم ، وأرسلت الي نظرتك تلك . اتراك فهمت من ارجائي الاجابة على طلبك ، انني مترددة بسبب وضعك المادي ، فأنت تأخذ عليّ الآن ، بهذه النظرة الغامضة الواضحة، هذا الموقف الذي لا يُقيّم الانسان كما ينبغي ان يُقيّم ؟

والفيتني فجأة اواجه عرضه الزواج، واحس ان عليّ ان اسارع بالاجابة . ولكني عجبت ان اشعر بما يشبه الجبن ... لقد تخلت عني كل جرأتي ، ورأيتني في وضع جديد كل الجدة لا يمت الى ما كنت اعتزمته ؛ فليست لديّ الآن اية رغبة في ان ارد طلب سالم، او ان اصارحه بالرفض. ومع ذلك ، فلست راغبة في قبول عرضه . ولقد تساءلت ، اذ ذاك ، في تملل مرهق : « ما الذي اريده إذن ؟ »

ولم اجد مناصاً من ان اغادر مجلسي مع سالم ، وانا اقول له انني بحاجة الى مزيد من التفكير ، وواعدته اللقاء في اليوم التالي ، ووعدته بان احسم القضية .

اغمضي عينيك دقائق لتستجلي صورة واضحة لما حدث، وتستبيني خطوط القضية كلها . انك تكذبين نفسك اذا زعمت انك لا تقيمين للمادة وزناً كبيراً . إن المال ما فتىء حلمك الاثير . لا، ليست هذه تهمة ، فلعلك لست انت المسؤولة عن هذا الخلق . إن الضيق الذي عشت فيه ، والجهد الذي بذلته لتوفري لنفسك العلم والثقافة ، والامل الذي غذيته في ان تختاري شريكاً للحياة يؤمن لك بحبوحة من العيش تبعد عنك هموم الحرمان — ان ذلك كله مسؤول عن هذا الخلق... ولكن هذه مبررات وتعلات تتفادى من مواجهة القضية . القضية الآن هي ان تتخذي موقفاً تجاه عرض سالم الذي ما برح معلقاً منذ ايام . فما سبب إحجامك اليوم عن مصارحته بما كنت قد انتويت ؟ اليس هو ذلك الراتب الجديد المغري الذي سيتقاضاه منذ الغد ؟ ألم تستشرفي من ذلك أفقاً باسماً لحياة منعمة ؟ إذن ، فانقدمي ، ولتصارحيه بقبولك ، ولتضعي حداً لهذه الحياة القاسية التي تعيشين !

ولكن نظرتك ، يا سالم ، تعود فتفاجيء فكرتي هذه وتزلزلها. انني أشعر الآن ان غموضها ينجاب عن اتهام صريح : « انني انسان أعتز بقيمتي الانسانية . اما انت فتريدين قيمة مادية . ليكن ذلك. فأنذا صاحب راتب ضخم . افتترددين بعد في قبول يدي ؟ » لم تنطق بها ، ومع ذلك ، فقد نطقت بها عيناك .

لا . لن ادعه يعتقد بأني انما أقبل به زوجاً لأنه أضحى ميسور الحال . لئن تغاضى الآن عن هذه الحقيقة ، فسوف يأتي يوم يحتقرني فيه من اجلها. لا ، لن اقبل عرضه ، وسيدرك من ذلك انه كان مخطئاً حين ظن ان بوسعه ان يشتري رضائي بالمال .

ولماذا تراني ابالغ في اتهام نفسي ؟ اما صممت منذ البدء على رفض طلبه؟ فلماذا لا امضي في تصميمي ؟

***

ما أنعم بالي الآن ، وما اوفر راحة ضميري ! لقد انتهت الازمة ، ولن يكون لشيء ان يثنيني بعد عن قراري . ولكن ما بالك تأخرت هذا المساء يا سالم ؟ اتراك حدست باني ابيّت لك امراً لا يرضيك ؟ إن كان الامر كذلك ، فخير لك ان تتأخر !

يبدو اني لم اخطيء الظن . فان على وجهك غمامة جاهمة من الاسى والحزن . انت متوقع ما سأجيبك به . حسناً . إن هذا سييسر لي المهمة . سأفهمك قراري بلا عناء . ولكن لماذا بربك تبادئني دائماً بالحديث ؟ لماذا تقبض ابداً على زمام المبادرة ؟ الا ترى اني لا استطيع ان اقاطعك ، اذا بدأت كلامك العادي ؟ فكيف اذا كان حزيناً هادئاً ، كهذا الذي بدأ ينساب من بين شفتيك واضحاً ، بسيطاً ، ينبع من صميم كيانك ؟

***

حين لقيتك يا عزيزتي ، ادركت بغموض انك نصبي من هذه الحياة . لا ، لست خيالياً ولا عاطفياً . انني من هذه الارض ، مشدود اليها بألف سبب . ولكن كيف تريدين ان افسر هذا الدفء الذي دب في كياني ، ساعة اجتمعت اليك ذلك المساء ؟ ولماذا تمنيت ان القاك مرة اخرى ؟ ولماذا شاءت الظروف ان تعينني فحققت لي هذه الامنية غير مرة ؟ ومنذا الذي كان يستطيع ان يحجب عن عيني صورة ذلك الدرب ، مرسوماً امامي ، يدعوني بالحاح الى ان اسلكه ؟

وإذن ، فاني إذ عزمت على ان اسألك مرافقتي في هذا الدرب ، كنت على يقين من اني مدفوع الى ذلك بكل وجودي ، من غير ظل للمقاومة .

ولعلني لم افكر بالتريث ، ولم احاول ان اتبصر في الامر . وقد شعرت بذلك حين رأيتك تترددين ، وابصرت بين قدميك الحيرة ، وقرأت في عينيك الواناً من الاسئلة ليس فيها ما يشي بالقبول . ولست بالغبي ، وما كان لي ان اتحرى السبب طويلاً . فقد كنت اعرف اني فقير ، وان هذه العقبة ستظل ابداً قائمة في وجه تحقيق رغباتي . غير اني لم اكن اخجل من فقري ، فقد كان مقروناً بمعنى الشرف والكرامة . كنت واسرتي نأكل اللقمة فلا نغصّ بها ، لأنها كانت مغموسة بعرق الجبين . كانت لقمة صغيرة لا تشبع ، وكانت جافة لا دسم فيها ، ولكنها كانت تسد الرمق ، فينبعث لها من عيوننا شعاع الرضى .

على اني كنت مؤمناً بانني لن البث طويلاً حتى ادفع وضعي الى مرتبة أرفع . فقد كنت انعم برصيد من النشاط والجد لا يكاد ينفد ، وارى ان هذه الساعات التي أنفقتها في عملي ليست كافية ، فانا بحاجة الى مزيد منها . وكنت مؤمناً بأن ليس ثمة جهد يضيع سدى. والحق ان فرص العمل كانت عندي متوفرة ، ولكني لم اكن ارضى منها إلا ما كان يتفق ومزاجي ويستجيب لدافع ضميري . كنت احاذر ابداً ان أقبل الفرصة التي تثير اي ظل من الشك ، فاتجنبها ، وامضي في سبيلي . كنت احرص على الاحتفاظ بنقاوة فكري واستقلاله وحريته . كانت العبودية، في اي لون من الوانها، ولا سيما لونها الفكري ، تملأني رعباً وذعراً . وكنت على شبه اليقين بان الظروف التي يعيش احدنا فيها توشك ان تسقطه كل يوم في لون من الوان هذه العبودية . ومن أجل هذا ، كنت اتحاشى الانخراط في اي عمل ، خشية ان يكون فيه ما قد يمسّ استقلالي الفكري ، مكتفياً بمهنة التدريس، هذه البسيطة التي يظل فيها الانسان فقيراً ، ولكنه يظل كذلك شريفاً .

غير اني اذ لقيتك وعزمت اخيراً على طلب يدك، لم يكن لي مناص من ان افكر تفكيراً جدياً بوضعي المادي. إن تبعة جديدة ستلقى على كتفي، اذا تم امر الزواج ، فينبغي ان اوفر لتحملها الاسباب . وحين رأيتك تترددين ، وترجئين الجواب ، خشيت ان اصاب من ذلك بخيبة، وانا لم اعتد الخيبات، ولست قادراً على احتمالها. وبرزت لذهني فرصة عمل كانت قد اتيحت لي منذ حين ، وكنت قد زهدت فيها لذلك الدافع نفسه من التحرج والخوف من ان تخضع فكري لنزعة لا تنبع من صميم أعماقه. على اني رأيت آنذاك ان في هذا الموقف سلبية عقيمة . وخير لهذا التحرج ان يعالج بالتحري والتحقق والدرس ، فاما ان يزول وإما ان يتحول الى رفض صريح. وإن الحاجة تمس الآن ، فلا بد من مواجهة فرصة العمل هذه على صعيد إيجابي من رغبة التقصي والبحث .

وكان ان اتصلت بالمسؤول عن ذلك العمل فرحب في ان يلقاني ويحدثني في شأنه .

وفارقته ذلك اليوم ، وقد اتفقت معه على العمل المطلوب ، وعرض عليّ ذلك الراتب الضخم . سأجد المال بين يدي وفيراً . سأكفي حاجتي من كل شيء ، وشوقي الى كل شيء . سأنسى الضيق الذي أختنق فيه. سيتنفس شبابي الحياة ... وقبل ذلك كله، سيزول هذا التردد الذي قرأته في عيني من حملت بها رفيقة في الطريق . سترضين عني يا آنستي. وإذ تبدت لي هذه الآفاق ، تساءلت في قلق : « لماذا ألزمت نفسي بمثل ذلك الحرج الذي ضيّق عليّ الانفاس ، طوال هذه الاعوام السابقة ؟» أما كان يجدر بي ان اسلك طريق الايجاب منذ وقت بعيد ؟ هأنذا قد ارتحت الى هذا العمل الجديد الذي ينسجم مع رغباتي ويتفق ورضى ضميري . عمل يتصل بمؤسسة ثقافية للنشر ليس فيها ما يثير ادنى شك . انها مؤسسة حرة لا اتصال لها بأية حكومة ، ولها في اكبر عواصم العالم فروع يمولها الافراد والهيئات

صدر حديثاً

العيون الظماء للنور

العيون الظماء للنور هي هذه الملايين من أفراد أمتي ، الحائرة المتخبطة في ظلام الجهل و العبودية والاستعمار

مجموعة قصائد للشاعر

يوسف الخطيب

طفولتي

[الى الصديقة التي سألت الشاعر شيئاً عن طفولته ..]

طفولتي .. من لهبِ الفقر ومن ترابـه
سخرت للثورة حرماني ، وكل مـا به
لم أشك .. حين كنت في الأمس لقىً ببابه
ولا تحسست انتصاراً ليَ في غِلاَبــه
ما زال همي عالمــاً أجدُ في طِلاَبه

*

طفولتي يا حلوة السؤال حــلم ثائرُ
عاش بــه منذ أتى هذا الوجود شاعر
في بيتنــا الصغير طفل ساهم ، وخاطر
يهزه .. كما هوى بجانحيــه الطائرُ
لا ترض شيئاً .. كل ما حولك ليلٌ عابرُ !

*

في قرية إن قلت جرداء ، فلست اكذبُ
طفولتي : فسحة بيت مهمل ، وملعب !
في الطين .. بين صبية من عمري لم يذهبوا
ما زلت .. إن كنت اغتربت عنهم .. واغتربوا
أحلامهم ثورة جيــل في دمي تلتهب !

*

تحت ظلال التينة الشهباء كنت أجلس
هناك راحت بالهوى أولى القوافي تهمس
ديوانيَ الأول أحــلى نغم ، واسلس
لم تتبدل خفقة كانت بصدري تهجس
إلا كما يضيع في وهـج الصباح الغَلَسُ

*

واختطف الطفلَ مـن القرية فجر أسودُ
و « غاصب » على الهوان لم يزل يستأسدُ
يشمخ كالجبار ، وهو « القَزَم » المستعبدُ .
واتصل الكفاح ، والغربة ، والتمرُد ...
ما أسعد النضال .. يغذو ناره التشردُ !

*

طفولتي .. يا حلوة السؤال لم تبرح معي
في بسمتي على الدروب الحمر ، او في مدمعي !
في جلستي مع الرفاق حول كأس مترع ،
في السجن ، في انطلاقتي عبر الوجود الاوسعِ
في كل نبضٍ لم تزل طفولتي .. تحيا معي !

حلب — **سليمان العيسى**

الخاصة . وغايتها تلك النبيلة : الدفاع عن حرية الثقافة ، اليست هي غايتي بالذات ؟ إنه إذن لحظ كبير ان اقع على مؤسسة اغذّي في كنفها اشواقي الى الحرية ، واحاول ان اخدم عن طريقها قومي وقضيتي .

وهذا الصباح ، باشرت ذلك العمل . وقد ظلت طوال اربع ساعات ، وهو الوقت الذي تم الاتفاق عليه ، انظر في شؤون مهمتي وأنظم لهـا الوسائل والأسباب .

وهأنذا الآن امامك ، قادم لتوي من المكتب الجديد .. هذا الذى كان يشعرني طوال النهار اني بدأت النفاق مع نفسي ، اني أخذت الطّبخ نقاوة فكري . اراك تعجبين يا آنستي لهذا الكلام ، وحق لك ذلك . فانا احسب انك لا تدركين ما أعانيه . انك لم تدركي اني حين ارضى ان اتقاضى المال لأدافع عن مبادىء اعتنقها ، انما اخون فكري الحر وأبيع ضميري المستقل . انني بذلك انصب المباديء والافكار سلعة تشرى وتباع . انني بذلك أسقط للفكر اعتباره وجدارته . إن الايمان بشيء لا يطلب ثمناً له . إن الايمان لا يكون مأجوراً .

***

والتفت إليّ سالم ، واردف يقول ، وعلى شفتيه بسمة حزينة شاحبة :

— لقد ايقنت الآن يا آنستي انني لست بالرجل الذي تنشدين . فانني اخدعك إذ اخدع نفسي . إن حاجتي الى المال الذي تريدين ان تربطي به أمر زواجنا قد القى على ضميري غشاوة ... غشاوة صفيقة ...

***

يا سالم . ايها العزيز الغالي . غفرانك وصفحك . انني لم اكن أعرفك . مزقّ هذه الغشاوة يا سالم . اترك هذا العمل ايها العزيز .

وما بالك يا سالم لم تفتح حتى الآن ذراعيك ، لتتلقى جسمي المرتعش ؟ ولماذا لم تخرج منديلك لتمسح عينيّ الباكيتين ، بل لماذا لا تمحها بشفتيك هاتين النبيلتين ؟

سهيل ادريس